الحقائب الألغاز

بقلم : محمد رجاء الدريني

قال : لن تصدق ما اريه لك ..

وتطلع الى يحاول ان يستمد من ملامحي ما يشجعه على ثقة بنفسه - لم يبد لي قط من قبل هكذا - كان دائما واثقا من نفسه ، وبحق .. وأنا شخصيا لم اعهد فيه غير الاتزان والسلوك المعقول والصدق والشجاعة - لم يحاول أبدا ان يستجدي ثقة الآخرين - كانت هذه تأتي عفويا وكانها ظل لثقته بنفسه - لم أره من قبل يحاول ان يشتري «واسطة» تأتي من سامعيه على أنهم سيصدقون حديثه قبل ان يسمعوا به . كانت عادته ان يقبل عليك ، وبدون مقدمات يقص عليك ما عنده من انباء او روايات عن نفسه أو عن الآخرين - وكثيرا ما كانت أخباره تبدو غريبة ولكن البرهان الملموس كان دائما يؤكدها - فمثلا كنا ذات يوم ذاهبين لاستقبال صديق له في المطار - استلم برقية من ذلك الصديق في الليلة السابقة يقول فيها

« استطرني عند الارتحاء .. مطار القاهرة الواحدة ظهرا .. »

وقبل الموعد المحدد بساعة كنا في سيارة أجرة في طريقنا الى المطار - ولاحظت أنه يتأهب شارد الذهن وأنه على الاكثر لا يدرك أنه في سيارة أو انسى جانبه - كما بدا لي من ملامح وجهه وعينيه الساهمتين أنه يعاني الما ما .. فلكزته بكوعي وهمست له مداعبا

- نحن هنا .. أين انت ؟

وكاد يقفز عن المقعد من مفاجأة اللكزة - ولكنه سرعان ما انتاب الى رشده وقال في حزن مبهم

- لن نرى (يوسف) اليوم -

- ماذا تعرف ؟ والبرقية ؟

- لن يأتي

- اتتنبأ كعادتك ؟

- لست انبأ - ولكن يسيطر على احساس غامض قسري أنه لن يحضر اليوم .. الله يستر -

ثم هتف بسائق التاكسي .. عد بنا الى البلد ..

ولكني لم اثق بقوله واصررت ان نصل المطار وننتظر صديقه وتم لي ما أردت - وصلنا المطار في الواحدة

كانت ملامح (خالد) هادئة ولكنه هدوء مصنوع باظفر . وقد حاولت ان اجره الى حديث ما . اى حديث . ولم افلح . ظل يقلب عينى كالرنيق ودقت الساعة الواحدة ثم الواحدة والربع والنصف ولم تصل طائرة صديقه . ودهبنا الى مكتب الاستعلامات فقالوا انهم لايعرفون شيئا لتاخر الطائرة . وانهم لا يعلمون ان كانت ستصل ام لا . ولم يحضر (يوسف) بالفعل فى ذلك اليوم . بل وصل فى اليوم التالى . وتبين ان الطائرة التى كانت تقله من لندن قد هبطت فى روما . ثم بعد ان اقلعت من روما بخمس دقائق عادت وهبطت من جديد . تبين ان بها خللا يحتاج الى اصلاح يستغرق يوما .

يومها لم يبدأ (خالد) الحديث عن مشاعره الخاصة العربية باستجداء التصديق وانما القاه فى مسامعى دون مقدمات ودون ان يتوقع منى الا تصدقه .

***

وحدث مثل هذا مرة اخرى . كنت اسهر فى ساعة متاخرة من الليل استعد لامتحان فى الحقوق الرومانية . كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف صباحا حين دق الجرس . وحين فتحت الباب وجدت (خالدا) امامى ، شاحب الوجه واسع العينين وقال بصوت تخنقه العبرات

احتاج الآن عشرة جنيهات . لا بد ان اسافر الى بورسعيد الليلة . امهلنى ساعتين .

حقا . بدا وكانه سيبح يتكلم عن هاويه سحيقة او يوم ينعق فى الظلام . وظننت انه مخمور . انه احيانا يشرب حتى يشمئل وحينذاك تسيطر عليه سوداوية عميقة الجذور . وتسيد به المخاوف المأساوية . قلت

ـ انك تبدو متعبا . ادخل واسترح قليلا .. سأعد لك قهوة .

ومددت يدى الى ذراعه احاول ان اجره الى الداخل . ولكنه سحب ذراعه منى فى غضب وظل متسمرا فى مكانه ولمع فى عينيه بريق غريب وقال بصوت

ـ مصطفى .. الا تفهم . اقول لك انى احتضر .. وانا اريد عشرة جنيهات لكى اذهب اليها . الآن .

ـ من اين عرفت ؟ اجاءتك رسالة او برقية او تليفون .. أم وحى ؟

ـ لا شىء من هذا . لا اعرف كيف عرفت . ولكنى واثق مما اقول . مصطفى ارجوك .. هل معك المبلغ الذى اريده . ؟

ـ مهما كل ماتريد . لحظة .. سأنبس واذهب معك ..

وارتسم فى وجهه الم كبير وهو يقول :

ـ انت لا تصدقنى ؟ ..

ـ بل صدقتك ولكنى لن اتركك تذهب وحدك بهذه الحال . سأذهب معك كما تشاء . لكن اسرع .

وفي دقائق كنا في باكسي متوجهين الى بورسعيد . وحين وصلنا كانت امه فصلا تحتضر . وفي الصباح فاضت روحها . ولكنها قبل أن تموت احست بوجود (خالد) ودموعه وبذراعه تسند رأسها رقيقة مثل شفتيها الجافتين فاشرقت في وجهها بارقة رضاء وسعادة ظلت تعمر، حتى بعد وفاتها .

***

ومرت على ذلك سبع سنوات . بعد وفاة امه بسنة تقريبا تخرج (خالد) من كلية العلوم بامتياز ثم أرسل في بعثة دراسية الى امريكا . واستقر هناك أربع سنوات عاد في نهايتها بشهادة الدكتوراه وبقصة حب غريبة لم يروها لأحد . كان يقول انه لم يحب وهو في امريكا اية فتاة . لانه ـ كما قال ـ كان منصرفا بكل طاقاته ووقته الى الدراسة والى تحقيق واجباته ومسئولياته نحو بلده واهله . ولم استغرب قوله هذا فقد كانت فكرة الواجب هذه تسيطر عليه لدرجة لم اعهدها في احد آخر وربما كان لنشأته في بورسعيد ولحياته في احداثها العظيمة عام ١٩٥٦ أثر كبير في تجذير فكرة الواجب والمسئولية في كيانه كله .

سألته ذات يوم :

ـ كيف كنت تروح عن نفسك اذن؟

ـ ربما تستغرب يامصطفى ماأقول . لو تستمع . وما ان وجودك كله وان معنى حياتك مرتبطان كليا بمشروع ما او بهدف ما . اشعرت بالتعب ولواصلت العمل مدى احدى اربعا وعشرين ساعة في كل يوم من حياتك .. النصر في هذه الحالة لا تحتاج الى راحة او ترويح ـ لان راحتك لا توجد الا في العمل ولكن انت وكل الناس تتحدثون عن ترويح الناس باسلوب يفصل بين راحة النفس وأداء الواجب . ولهذا يقومون بواجباتهم من غير نفس ، ولا ترتاح نفوسهم الا خارج أداء الواجب ، بأعمال هي في الغالب خرق لواجب الانسان نحو نفسه كانسان . لكني كنت ـ بعكس ذلك ـ أجد كل اللذة في الدراسة والعمل والتجريب والمخابرة، وحين كنت لا أعمل في واحدة من هؤلاء كنت احلم بمشاريع كثيرة واعيش في احلامي . وحين لم أكن احلم او أحلم كنت احس بفراغ وانعدام لطعم ومعنى الوجود . وكنت لا أنجو من هذه الاحاسيس المروعة الا بالعودة الى العمل او الى رسم المشاريع .

ـ وعزيزة الحلس فيك ؟ انت انسان كما اعلم . وفيك عزيزة لا بد أن تشبع باسلوب ما .

ـ عزيزة الحلس ؟ نعم . نعم . هذه كانت تسمع كما تقول .

لا . لاتظل انني كنت قديسا . لكن اشباع عزيزة الحلس هناك هو في الغالب عملية عضوية بحتة غير مرتبطة بعواطف عميقة ودائمة . الانسان هناك مسروح . مجرد آلة . كثيرا ما تجد هناك اثنين يتعاشران يوميا دون أن تربط بينهما اى عاطفة عميقة دائمة . وقد تجد هناك عاطفة قوية دائمة بدون معاشرة دائمة .

ـ وهذا الذي تسميه ، عاطفة عميقة دائمة ، هل عشت حياتك هناك منه ؟

ـ نعم ولا .. انت تقصد الحب المرتبط بالجنس . وقد عشت حياتي هناك منه . لكن كان في قلبي حب كبير عميق دائم لشيء اسمه العرب وبلاد العرب . ولهذا كنت اعتبر اقامتي هناك فترة استعداد وتحفز للعودة اليها وللمساهمة في النهوض بها . ولو سمحت للحب الذي تسميه أنت أن يتملكني لألهاني عن الحب الذي اعنيه .

***

لو رأيت خالدا كما رأيته وهو يتحدث هذا الحديث لصدقته كما صدقته . لم أستطع أن اشك في صدقه .. وكل ما أعرفه عنه وما عرفه عنه كثير . كان يشجب كل امكانيات الشك في صدق واخلاص ما قال .. ربما كان يبالغ .. ربما ولكني شخصيا لا أجد مجالا لـ « ربما » هذه .

رغم ثقتي الشديدة به ، وهو يعرف كل المعرفة أن ثقتي به شديدة ، بدا (خالد) حديثه معي اليوم بقوله

ـ لن تصدق ما أرويه لك .. ثم تطلع الى وجهي محاولا أن يستمد من تعبيراته ما يشجعه على أن يثق بنفسه وان يستمر في حديثه .

ـ بل سأصدق .. ما تعودت منك غير الصدق .

ـ ولكن قصتي هذه المرة أغرب من كل ما تتوقع .

ـ لست هذه أول مرة .

وابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ المرارة هذه المرة من نوع قد لا تفهمه أبدا . أنا نفسي لا أفهمه ..

ـ ما الذي ما عجزت عن فهمه ؟ ولكن هذا لم يمنعني عن تصديق كل ما رويته لي .

ـ اتعلم ؟ لقد نصحت ألا اروي هذه القصة لأحد . ولكن فرح صبري يا مصطفى . لم أعد أحتمل الانطلاق والكتمان . لا بد أن أشرك واحدا في قصتي ولم أجد خيرا منك ..

ـ شكرا .. ولكن من الذي نصحك .. يبدو أن هناك شخصا آخر غيري .

ـ نعم .. هناك شخص آخر . انه فتاة .

قلت في انتصار

ـ هاها .. انت واحاديثك عن حب الوطن والعرب و .. انزل الى مستوى البشر يا أخي .. انزل ..

ضحك وهو يقول :

ـ لاسبق الاحداث بعد . اسمعني حتى النهاية ..

ـ كل آذان ..

ـ انت تعرف انني عشت في امريكا على ظهر باخرة ، من تلك البواخر التي يسمونها ، عابرات المحيط ، . والفتاة التي أحدثك عنها عرفتها على الباخرة . كان ذلك في آخر ليلة لنا في الاطلنطي . البواخر عادة تقيم حفلة مناسبة اجتياز المحيط . انهم يسمونها حفلة الوصول بالسلامة . وقد اقامت باخرتنا هذه الحفلة التي امتدت حتى الواحدة في الواحدة والنصف كان معظم المسافرين قد أووا الى فراشهم كي يستيقظوا باكرا ويتركوا

الى الشرفة . كنا سنصل للشرفة في حوالي السابعة صباحا ..

اما انا فلم انم .. لم احس برغبة في النوم . ولهذا احضرت معطفا من احد البحارة ، وصعدت الى سطح المقدمة السفلية حيث كانت هناك مساحة مساوية فيها بعض المقاعد الخشبية كالتي نراها في حدائقنا العامة . جلست على احد تلك المقاعد ادخن سيجارة خلف سيجارة وأتأمل النجوم والسماء والبحر ونسمات الليل الباردة المنعشة وخرير الامواج . ثم سرحت لا ادري كيف .. توقف ذهني عن التفكير وشعرت بوحدة عضوية عضوية مع الكون كله .. احسست انني والسماء والنجوم والبحر والسفينة والامواج والرياح شيء واحد ، روح واحد . احسست بروحي تعانق كل هذه الاشياء وتحتضنها بذراعين ضخمين حتى لكأن أحدهما حمال روكي والآخر هيمالايا . واحسست انني كبير جدا ، وان جسدي ليس الا ثوبا ضيقا خانقا . وشعرت باختناق فعلي ودمعة تسيل على خدي ، وبعد الدمعة عمرتني راحة وشملني سلام . وفجأة سمعت صوتا غريبا يهتف بي . صوتا هامسا غريبا وكأنه آت من عالم آخر

« ليست وحدك تملك الدنيا وتعد مع الكون ياخالد . بل انا ايضا اشاركك . خالد و (حريص) والكون كلنا روح واحد » .

وامتدت يد ناعمة كالحرير ، دافئة كالفرو ، تمسح على خدي وجهي كله في حنان رقيق . ثم احس خفيف ثوب وحركة قدمين ثم المح جسما يقف امامي في الظلام .. انه فوام فتاة .. والمح من وراء خلالات الظلام الخفيف ابتسامة عذبة تبرق في عينيها وتنير لي وجهها لحظة . ثم جلست الفتاة بجانبي ووضعت راحتي بين راحتيها .

كنت هذا كله وأنا مذهول مسحور . وحين أفقت من ذهولي لمست تغيرات ادراكي لم أصدق نفسي وحواسي . لم أعرف في حياتي فتاة اسمها حريص .

فهمست لي في تأنيب ودود

— بل تعرفني واعرفك منذ أمد طويل .. طويل ..

— ودهلت . هبل تقرأ افكاري ؟ وحاولت ان أشعل عود كبريت لأراها على ضوئه . وربما تعرفت عليها . ولكنها خطفت الكبريت من يدي وهي تقول :

— ارجوك ياعزيزي . لاتفسد جمال الطبيعة بصناعة الانسان . انور كاف لمثل هذه اللحظة من النهار . وليس أجمل من نور النجوم في الصدق .. يتسلل على موسيقى الامواج ونسمات البحر ورحاب الندى .. آه .. انني مبتردة قليلا . ضمني اليك .. ضمني وافرد على جناحك .. آه .. هكذا هذا جميل منك . دعنا جالسين هكذا . عما قليل تظهر انوار الشرفة . وبعد ساعة أو اثنين تشرق الشمس .. وستراني كما تشاء في ضوء النار — لا .. لن تأسف الا على شيء واحد ، هو أنك لم تحدثني من قبل مع أنني كنت دائما حولك

— لا تفكر كثيرا يا عزيزي .. انا أيضا مسافرة الى الاسكندرية — بعد ذلك من يدري ؟

وتذكرت الحكايات التي كنا نسمعها عن الجنيات .. أأكون مع جنية ..

وضحكت عاليا هذه المرة . كان ضحكاتها كانت أنغام وتر ..

ـ ما اسخفك ياعزيزي .. لا .. لست جميلة . أنا انسانة مثلك .. اتريد أن ترى جواز سفري ؟ ..

وفتحت فمي اريد ان أسألها كيف تعرف كل هذا عني .. اسمي ونهاية رحلتي و .. أفكاري كلها .. ولم أكد انطق حرفا واحدا حتى كانت واضعة اصبعها على فمي .. وهمست

ـ اش . اش . لاتفسد جمال لقائنا بالتفكير والتساؤلات . ستعرف كل شيء في حينه . ويمكنك ان تحدثني كما تشاء في لشبونة . سنرورها معا . اليس كذلك ؟

ـ لا ادري . الامر يعتمد على .. وقاطعتني

ـ انك تتدلل بغباء كمعظم الفتيات في بلادكم . انك ترغب جدا في ان تكون معي ومن جهتي فليس أعز على من ذلك . اتفقنا اذن . والآن صمتي اليك . لاتقل شيئا . عد الى وحدتك مع الكون . انا وانت والبر والبحر والجو كلنا روح واحد عظيم يلبس اثوابا مختلفة .

لاأدري كيف حدث ذلك . فقد استجبت لها بدون ادنى مقاومة أو تفكير .. وفعلا دبت في وحدة صوفي غريب . نسيت نفسي ونسيتها ونسيت كل شيء تحتي وفوقي وحولي . الاحساس الوحيد الذي عمرني هو أنا جميعا . أنا وهي والكون روح واحد كبير .. كبير مسجون في احساد صغيرة .. ثم في هذه اللحظة تحطمت جدران السجون وعاد الكون كله ـ بما فيه نحن ـ الى وحدته .

ولا أدري كم بقينا على هذه الحال . فالزمن ايضا فقد هويته الخاصة . لكن فجأة قفزت « جريس » من بين ذراعي وصاحت في فرحة طفلة

ـ لشبونة .. أضواء لشبونة .. انظر .. انها هناك .. هناك .

ونظرت في عشية البحر ورأيت ثلاثة أنوار تتلاحم في الافق البعيد . وشعرت أنا الاخر بفرحة . وركضت « جريس » الى أعمدة الحديد الاقفية التي تسور سطح السفينة واتكأت عليها . ولحقت بها واحتضنتها فاستسلمت في وداعة رقيقة ورحنا نتطلع معا الى لشبونة .

كان ضوء الفجر قد بدأ يزداد وضوحا في كل دقيقة حتى أصبح كل شيء حولي واضحا . وتأملت هذه التي تضمها ذراعاي فوجدتها اجمل من وقعت عليها عيناي . ولاحظت وأنا أستغرق النظر الى ملامحها أنها بدأت تبتسم . وفجأة استدارت نحوي وحيل الى لحظة انها ملاك اكثر منها بشرا . لكن سرعان مازالت هذه الخاطرة من ذهني حين قرصت وجنتي وهي تهمس لي

ـ هل اطمأنت انك لم تكن لعبة بيد عجوز متصابية . لا .. لاتجب . فانا اعرف أن الفكرة خطرت لك . والان وقد زالت التي لاعيب في ان أرجوك الا تعيش معي بعقلك وتساؤلاتك وافكارك . عش معي بوجودك كله بدون تساؤل . بدون تفسير اجتماعي . بدون تعقيد للامور . فالعقل ملهاة .

وفي الحال ذابت كل تساؤلاتي وكل

افكاري . وعشت معها بكل وجودي فلم اشعر بجموع المسافرين الذين راحوا يتقاطرون الى الساحة ويتفرجون معنا على المدينة التي تفرت علينا من الافق .

والقت السفينة مراسيها في ميناء لشبونة . وأعطى المسافرون مهلة عشر ساعات يقضونها على البر . ونزلنا انا و (حريس) وقضينا هذه المدة نطوف شوارع المدينة ونزور اسواقها وآثارها ومشاهدها وقد جلسنا فترة في مقهى . وحينذاك قلت لها :

ـ والآن يا (حريس) من أنت ؟

قالت :

ـ (حريس) ثم تهجت اسمها بالانجليزية ثم استأنفت : اسمي الكامل (حريس ماكنسكي) ولدت ونشأت في ولاية (أوريغون) . والآن انا مسافرة الى بيروت حيث التقي بامي وساقضي معها أسبوعا في بيروت ودمشق وعمان والقدس . ثم اطير الى الهند ثم الصين ثم اليابان ثم اعود الى امريكا . هل اشبع هذا فضولك ؟

ـ لست ادعي هذا . ادعي ما طبيعتك ؟ كيف عرفتني ؟ كيف تقرئين افكاري حتى قبل أن اتمها في نفسي ؟

ـ هل هذا مهم ؟

ـ بالنسبة لي انه مهم جدا . فانني اعيش مع الفر . ولست اصبر على الانهار .

ـ ان حياتنا كلها انهار . اتظن أنني الفر الوحيد في حياتك ؟

ـ لا . ولكنك لفر غير مالوف .

ـ حاول أن تالفه . انني لا أستطيع أن افكه لك .. لا بد أن تفك رموزه بنفسك . ولكل فك الرموز والالغاز يأتي عفويا والهاما . ولهذا لا تفتعل الايضاح بعقلك المحدود .

ـ ربما لا أستطيع الصبر حتى يأتيني الالهام .

قالت وكانها تحدث نفسها . بمثل هذا الموقف من اسرار الحياة طرد آدم نفسه من الفردوس ـ ولكن هل ملكتني يا عزيزي ؟ تظل دائما تلهي عني بالأسئلة .. ان الجواب على اسئلتك انفه بكثير من حقيقة انا معا الآن في هذه اللحظة . الماضي لا يهم ـ والمستقبل لا يهم . المهم هو الحاضر ـ فهو المستقبل وهو الماضي . دعنا نستمتع به . دعنا .

ـ كما تشائين ..

ونسيت الماضي والمستقبل . وعشت بوجودي كله في الحاضر ـ معها ومعها ولها . ورحنا كطفلين .. دراعانا ملتحمان وجسداننا يسيران خطوات واحدة في اتجاه المدينة . وفي المساء حين عدنا الى السفينة كنا من اسعد المخلوقات واستانفنا ما كنا فيه من سعادة .

قالت وهي تتعلق بذراعي :

نحن الآن زوجان ابديان .. انت آدم وانا حواء وهذا العالم كله جنة عدن فردوسنا . شجرة واحدة يمكن لثمرها أن يفسد زواجنا ـ العقل ـ لا تفكر يا حياتي . والا اصبحنا ابناء الالم والندم والعذاب .

ولم افكر . تحررت من كل القيود الاجتماعية التي تثقل كثيرا من الازواج امام انسانية الانسان . وعشت مع معبودتي وربيعي وفريستي (حريس) في فردوس ستة ايام بلياليها . وفي

فجر اليوم السابع كنا نصل الى ميناء الاسكندرية

قالت وهي تحتضنني على سطح مقدمة السفينة في غبشة الفجر

ـ يا أدمى العزيز .. بعد اليوم ستضرب في أرجاء الارض وحدك .. ولكنك ستذكرني دائما ..

قلت ودمعي ينهمر

ـ دائما ..

قالت وتخلص لي دائما .. تظل دائما انسانا فيه براءة الفردوس ..

قلت بكل قواي أعد ..

قالت انك تحيب بمنطق العقل ومنذ ساعات والعقل يسيطر عليك .. ولهذا تبكي .. انما ما زلنا في الفردوس يا حبيبي المسكين ولكنك أكلت من ثمر الشجرة المحرمة وبدأت تحس أنك قادم على ظلام وتكمير وعذاب .. آه ياعزيزي مودي لو اتبعك واظل معك ..

قلت وأنا انهار امام انتهاء فكرة الفردوس

ـ وبودي ذلك أيضا . اسمعي . لم لا تنهين رحلتك هنا في الاسكندرية . ثم نتزوج ونعيش معا الى الابد . سنتزوج حالما تطأ أقدامنا البر . سنذهب الى شيخ او قسيس اذا اردت ونطلب منه ان يعقد زواجنا .

قالت وفي صوتها نواح

ـ اوهام وأباطيل ـ زواج وحياة الى الابد ـ وشيوخ وقسس . نحن متزوجان يا عزيزي وزواجنا أبدي ومعقود في صفحة القدر . ولكن .. يا الهي .. أنت لا تفهمني . ومع ذلك أنت روحي .

ـ روحك ؟ كيف ـ من الذي روحنا؟

ـ لا يستطيع احد أن يروحنا . نحن الذي نروحنا .. أتعرف من أنا ؟

ـ أنت (حريص) .. أنت (حريص ماكسيكي) .

ـ أنا (خالد) .. وأنت (حريص) وكلانا (خالد وحريص) .

ـ الغاز لا افهمها .

ـ وحقائق لاتستطيع ان تهرب منها . وراحت تحتضنني وتقبلني وتتحسسني في حنان ورثاء واشفاق وكانت تتمتم وهي تمسح وجهها بوجهي وبعنقي وبصدري وكأنها تحاول أن تعيد الى عقلي وقلبي وروحي . وحين عصرت انهمرت من عينيها الدموع التي بدا لي وهي تتمرغ بها أنها تحاول تذويب المواجع الجسدية التي تمنع روحي من ملاقاة روحها والاتحاد معها .

وقضيت تلك الليلة مع (حريص) مأخوذا مبهورا مسحورا . وحين طلع الصباح ورست السفينة في الميناء كنت لا أكاد اقوى على الوقوف . ولكنها حين ودعتني بثت في القوة والشجاعة على المضي في دروب الحياة الى نهاية نصيبي منها . واوصتني ألا اروي لأحد قصتنا . وأكدت لي ان احدا لن يفهمني ولن يصدقني . ولهذا سيتهمني الناس بالجنون . وربما يحبسونني بالعمل .

بعد ذلك بسبوعات كنت بين أهلي وأصدقائي في بورسعيد استسلم لقبلاتهم وعناقهم وتهانيهم . وعدت الى دروب الحياة المألوفة الخالية من الانغام الغريبة الحبيبة .

***

وسكت (خالد) لحظة وكان في عينيه المحمرتين الدامعتين شرود واخيرا استانف حديثه

ـ لقد اعطتني عنوانها ووعدتها ان أكتب اليها كلما احسست بحاجة نفسية ملحة اليها . قالت انها ستكتب الى كلما

احسست انني بحاجة حقيقية اليها، وانني سأجدها حولي بلحمها ودمها، كلما دبت بوجودي في السكون في لحظات الوحدة والصفاء العقوي غير المحتمل .

وقد كنت لها في كل مكان استقرت فيه، كنت لها في الهند، وفي الفيليبين، وفي الصين وفي اليابان وفي أوربيون بامريكا . وكانت رسائلها تصلني بين الحين والآخر ، في اللحظات التي أكون فيها على وشك أن أتخلى عن وعدي لها بأن أكون « انسانا دائما » فيه براءة الفردوس .

« فجأة ، شربت ذات ليلة مع ثلة من الاصدقاء وزملاء العمل . وكنت يومها أشرب في غير اعتدال . وفجأة ، قبل أن أسكر ، قال محمود ، وهو أحد زملائي كما تعلم « خالد هذه رسالة وصلت اليوم وقد نسيت أن أعطيها لك في الدائرة . ولم أتذكرها الا الآن » وأخذت الرسالة . وحين قرأتها عادت نفس المشروب ورفاق الكأس . فغادرتهم وذهبت الى شقتي سيرا على الاقدام . كان البدر مكتملا في تلك الليلة ، والطريق هادئا خاليا من الصخيج والزحام . ونسيت نفسي . وشعرت بوجود صوت ووحدة عصوية مع السكون كله . وظل جسدي يسير عريريا الى شقته وحين فتح الباب ودخل كانت (جريس) خلف الباب بلحمها ودمها ، ذراعاها ممتدان لاستقبالي . واحتضنتني وهي تهمس

ـ يا حبيبي المسكين ... لكم تعاني روحك المرنة والوحدة ... ولكم أنت بحاجة الى غرامي ... تعال ، واستريح في حضني يا روحي الحبيب

وعشت ليلتها في حضنها حتى الصباح ... وحين أفقت في الصباح كان البيت مرتبا ونظيفا وجميلا ... وكان الكون كله مشرقا بالجمال والعبق .

وفي مرة أخرى كان أحد زملائي في العمل ... ولا ضرورة لذكر اسمه ، قد استعمل مركزه استغلالا يضر بالمصلحة العامة . كنت مسئولا عنه ، ولهذا اعتقدت أن من واجبي أن أوقفه عن الاستغلال ، وأن أعاقبه بحزم . وقبل قمت بواجبي بشكل آلي . لم أسمح لعواطفي أن تؤثر على سلوكي تجاهه ورغم أنه حاول أن يستثير كل مكامن الرحمة في ... سددت أذني ضد كل ما قال ... وسددت عليه كل أبواب الرحمة ... وبعد أن أصدرت للعقاب . دخل علي المسكين منكسر النفس وهو يحمل لي رسالة منها . ناولني الرسالة وخرج ... وحين قرأت الرسالة حزنت حزنا شديدا ، وتمنيت لو كنت مجردا من سلطة العقاب والثواب . وقضيت المساء وحدي في شقتي احتر حزني على ذلك الزميل المسكين حتى بكيت من أجله ... وحينذاك احسست يديها تمتدان من خلفي لتمسح دموعي وتسند رأسي الى صدرها الحنون وهمست

ـ « عدالة الانسان يا عزيزي ليست نظريات لا قلب لها . انها يجب أن تقوم على الحب ... والحب يتمثل في الرحمة معا » ، ثم ظلت تواسيني وتسليني حتى غفوت في حضنها حتى الصباح .

ومرت ستة وتسعة شهور على هذه الحال ... أحيانا كان يصلني منها رسالتان في الاسبوع ، وأحيانا تنقطع شهرين أو ثلاثة ... لكن رسائلها كانت عزيزة في محتواها وفي تأثيرها علي . لم تكن تعتذر عن عدم انتظامها ... ولم تكن تشير الى

رسائل ... مرة واحدة علقت على رسائل بأنها تعبيرات عن نزوات مؤقتة لا تصدق الا على اللحظات التي كنت أكتبها فيها. وأحيانا كان يخيل الى أن رسائلها ليست موجهة الى بالذات بقدر ما هي موجهة الى الانسان في.. الانسان المطلق. واحيانا كنت اشعر أن هذه الرسائل نفسها انما تخاطبني وحدي من دون الناس وتحاسبني على كل صغيرة وكبيرة في حياتي محاسبة ودوده وحازمة معا .

***

وتوقف (خالد) عن الكلام للمرة الثانية . وتطلع الى من جديد في محاولة لمعرفة اثر روايته على وموقفي منها . وأدركت حاجته الى تعليق مد جزر مني. في أعماقي كنت مختارا بين أن اصدقه وبين أن اشك في صحة عقله . ولا أكتم أنني كنت راغبا في المزيد من أحداث قصته.. ولو ادرك أنني أشك في صدق ما يقول لأمتنع عن حديث ، ولحرمت نفسي من سماع البقية . لهذا قلت :

ـ ان ما تروي غريب حقا .. انك تتحدث عن خوارق . ولكن ، اما زلتما على هذه الحال ، أعني ، هل تراسلك وتظهر لك على النحو الذي ذكرت ؟

وتنهد (خالد) وأجاب :

ـ لم أرها ولم أستلم منها أية رسالة منذ خمسة أشهر .

فسألته :

ـ هل هناك سبب ؟

أجاب :

ـ لا ادري . ولهذا تجدني قلقا عليها محزونا لاختفائها من حياتي . بعثت لها أكثر من عشر رسائل ولكن الرسائل لم تعد الي ، ولم يردني اي جواب على أية رسالة . ومعنى هذا انها استلمت رسائل ولكنها لا تريد ان ترد عليها . لماذا ؟ لا أعرف . ليتني أعرف .

ثم أحاله الى الصمت للمرة الثالثة . شرد ذهنه . خيل الى أنه يخفي عني شيئا .. كان شروده مختلفا هذه المرة. لم يكن الشرود المنوشح بعلالة رقيقة من الحزن الهادئ ، بل كان شرود القلق والخوف شرود الرغبة في الهرب من شيء ما . ملامح وجهه لم تعكس الاطمئنان أو البراءة . لقد حل فيها القلق محل الطمأنينة . بل خيل لي لحظة أن ملامحه تنم عن صراع بين الشعور بالاثم وبين العناد والكبرياء الذي يرفض أن يعترف بالاثم . ولكني طردت هذه الخاطرة من ذهني . وقلت في نفسي :

ـ لا ـ ليس هذا ممكنا . ان كانت عندي فراسة ، فان فراستي لا ترى في خالد رجلا قادرا على الاثم أو على المكابرة.

ولكنه لا شك أن خالدا كان قلقا بالفعل . وربما كان خائفا. ولهذا قلت أنتشله من ذهوله :

ـ انك لا تبدو طبيعيا يا خالد . هل انت قلق من شيء أو خائف من شيء ؟

وليتني لم أسأله هذا السؤال .. فقد ارتبك ارتباكا شديدا . كنا يومها جالسين حول طاولة في أحد المقاهي ، وكانت يده تمسك كوبا من الماء. وحين سمع كلمتي «قلق» و «خائف» ارتجفت يده فدلقت ما في الكوب على الطاولة ، فراح يمسح الماء المدلوق بمنديل فارتطمت يده بفنجان القهوة الذي وقع على الارض « طاق » طاق » ـ تحطم . واحمر وجه (خالد) ثم اصفر ، ثم احمر ـ وابتسم ابتسامة بلهاء مقهورة ، وحاول أن يتكلم فتلعثم وتكسرت الكلمات على لسانه وماتت على شفتيه .

وادركت انه يعاني صراعا داخليا عاصفا لا اعرف عنه شيئا ولا يود هو ـ كما بدا لي ـ ان يفصح عنه. فتشاغلت عنه بترتيب ما احدثه ارتباكه من فوضى ثم دفعت الحساب وثمن الصحان المكسور ، واخذته من ذراعه وخرجنا .

ونسي ان يسألني ان كنت صدقت روايته . نطق لسانه بكلمات اعتذار عوضاء ، وقال انه مرهق يحتاج اجازة وانه سيأخذ هذه الاجازة في خلال اسبوع . وتركني دون ان يشير بكلمة الى قصته مع حريص .

بعد اسبوع زارني خالد في بيتي . كان يبدو متعبا جدا . قال انه أخذ اجازة شهر وسيقضيها كلها في الاسكندرية . ووعدت أن أزوره هناك بعد أسبوع . ثم ودعني وخرج .

وفي يوم الاربعاء ، أي بعد خمسة أيام ، كنت ساهرا في بيتي بعد أن عدنا ـ أنا وزوجتي ـ من مشاهدة أحد الافلام . كنا قد انتهينا من تناول وجبة خفيفة ، وبدأت زوجتي تستعد للنوم ، ورحت أنا أطالع رواية . كانت الساعة تقارب الواحدة صباحا . وفجأة دق جرس الباب . وتطلعت زوجتي مستنكرة هذا التطفل في هذه الساعة من الليل ، وقالت :

ـ لابد أنه أحد أصدقائك «السائمين» .

وذهبت نحو الباب وأنا متضايق من تعليقها ومن الذي دق الجرس . وحين فتحت الباب رأيت رجل بوليس ضخما يقف كالتمثال . وتطلعت اليه في حنق ودهشة . ولكنه لم يأبه لي ، وبادر يسألني وكأنه جهاز تسجيل :

ـ حضرتك مصطفى حافظ الله ؟

قلت :

ـ نعم .. لماذا ..

قال :

ـ تسمح تلبس وتتفضل معي الى القسم .

قلت : القسم ؟ لماذا ؟

قال :

ـ هناك شخص يدعى انه الدكتور خالد عبد الله . سلم نفسه للبوليس قبل قليل . طلب أن نقبض عليه .. نحن نظنه مجنونا أو مخبولا . وليس معه اوراق تثبت شخصيته . ولكنه قال انه يعرفك وأن منزلك قريب جدا .

قلت وأنا لا أدري كيف أهضم ما يقول :

ـ الدكتور خالد ؟ أنت متأكد ؟ حاضر سأليس حالا .. حالا ..

وتركته واقفا بالباب ودخلت الى المنزل لألبس ملابسي ..

كانت زوجتي قد سمعت كل شيء ولكنها لم تصدق وقالت :

ـ الدكتور خالد ؟ هذا غير معقول . انه في اسكندرية ، أليس كذلك ؟

قلت وأنا أرمي بمعاطفي واحشر نفسي في بنطلوني :

ـ هذا ما أعلمه . لكن .. على كل حال سأتأكد في لحظات . نامي أنت .

وتركتها مذهولة ، وراقت العسكري ، الى مركز البوليس ..

وبالفعل وجدت (خالدا) هناك ، يجلس على كرسي أمام مكتب الضابط ، رأسه منحن الى الامام ووجهه ممطي براحتيه . وحين أحس بي عند واقفا . كانت ملامحه هادئة هدوءا غريبا ، تعلو في بلاغة عن مأساة ويأس واستسلام .

قلت وانا احتضنه بين ذراعي في تأثر بالغ :

ـ «دكتور خالد .. مالك ياعزيزي ؟ انك تبدو وكأن القيامة قامت ؟»

قال :

ـ لقد قامت قيامتي بالفعل ..

قلت :

ـ لا أفهم .. مادا تعني ؟

واستأذن خالد الضابط في ان ينفرد بي بعض الوقت ، فاذن لنا بالانفراد بعد أن اطلع على هويتي وأخذ بعض المعلومات بشأن عملي وعنواني و .. الخ . ادخلنا حجرة صغيرة بجوار مكتب الضابط ليها بصمة كراس . وحين جلسنا تطلع الى خالد بوجه هادىء حال من الانفعال وقال :

« لولم اسلم نفسي لقبضوا علي عاجلا او آجلا .. فقد تورطت في عملية اختلاس لا ، لاتستغرب ، حتى الملائكه حانوا طبيعتهم واصبحوا شياطين . المهم يا صديقي اني اخطأت كنت اوهم نفسي أول الامر ان ما افعله ليس اختلاسا ، بل تصريفا خاصا للقانون لا يؤدي الى خرق القانون .. صحيح ان ضميري لم يكن مرتاحا لهذا المنطق ، لكني استطعت بمساعدة شركائي أن احتال على ارضاء ضميري بالتفلسف حول معنى القانون وغايته وطبيعة عمل المحامين وغير ذلك .

لكني بعد مدة قصيرة اكتشفت ان عملنا لم يكن تحايلا مشروعا على القانون ، ليس تصريفا خاصا منطقيا له ، بل كان اعتداء صارخا على القانون لكني اكتشفت ايضا انه ليس من السهل ان انسحب .. خفت ، والخوف جعلني أتردد في الانسحاب ، كذلك اوهمت نفسي انه يمكن أن يخطى الامر قبل أن ينفضح ، وحينذاك أنسحب . ومضت الايام وانا ازداد غوصا في الوحل رغما عني ، وشبكة المجرمين تزداد تعودا على ـ اثره يهددوني وتارة يهددون الامر على زيارة يسوني أن الاختلاس سيتوقف في وقت قصير ويسوى بحيث لا يظهر له أثر وحينذاك أستانف الاستقامة .

واصبحت فريسة لوحات متتابعة مستمرة من الخوف والقلق والأمل حتى لم أعد أدري ما افعل ولهذا قررت ان أعد أجازة وأن أبتعد عن جو الجريمة لاريح أعصابي وافكر في هدوء .

وفي الاسكندرية استأجرت شقة منعزلة نوعا ، وبدأت أدرس وضعي واقوم تصرفاتي بعيدا عن تأثير الشركاء ورحمة الأعمال . واكتشفت أني تغيرت كانسان وأن الغش والاثرة والطمع والمادية أصبحت مسيطرة على سلوكي وموجهة لتصرفاتي . اكتشفت أن الأمانة والايثار والقناعة والروحانية لم تعد صفات لي كما كانت من قبل ـ أصبحت (فاوست) آخر .

وقد آلمني هذا الاكتشاف ، وآلمني ما جرني اليه هذا التغير من تورط في جريمة الاختلاس ، وقررت أن أتوقف عن الاستمرار في هذه الجريمة ، وأن أكتشفها ، ولم يكن هذا التراجع بدافع اخلاقي ، الحقيقة أني كنت خائفا من الاستمرار ، لم يكن بدافع التوبة الصادقة والندم بقدر ما كان بدافع الخوف ، ولو وجدت سبيلا أتخلص به من الجريمة دون أن يلاحق العقاب لسلكته ، احيانا كنت أتوهم أني سأفعل ذلك بتأثير الشعور بالاثم

والنسيم ولكن بصرفني العفوية التي كانت تنم عن حسة عميقة في .

مثلا

في الليلة الماضية سهرت في احد النوادي الليلية . حين دفعت رسم الدخول للبنت حبيبها . اعطتني تذكرة قيمتها خمسة وعشرون قرشا ثم قالت

- حضرتك اعطيتني خمسة جنيهات .

وادركت انها أخطأت ، ولكني لم اصححها . قلت

- نعم .

فاعطتني اربعة جنيهات وخمسة وسبعين قرشا . وبكل بساطة وبدون وخزة ضمير أخذت المبلغ الذي لا حق لي فيه .

وقد شربت حتى ثملت وعربدت كما لم اعربد من قبل ابدا . وانهيت الليلة برفقة احدى الراقصات الى بيتي . وفي البيت أرهبت الصاة حتى ظننت انني سأقتلها . وعندئذ عدانا منكرا . لم أترك سترا من حياء الا ومزقته ، لم اترك عورة الا وفضحتها . لو رايتني لاعتقدت انني شيطان مريد (مستر « جيكل » آخر .

الأغرب من هذا انني كنت أشعر بلذة شيطانية غريبة . دست كل القيم في احتقار وتشف مجنون . وفي نفس الوقت كان في أعماقي صوت يضحك علي ، يهزأ بي ، يسخر مني ، يعيرني أنني انما أحطم بدمي . اتبدل ، اندفع في شوارع غريبة الى الهاوية . أحطم وادوس كل المثل النبيلة والمشروعات الانسانية التي كنت قد كرست حياتي لها . وكل شيطنتي كانت تحديا لهذا الصوت ، ومحاولة للانتصار عليه .

وقد اعتقدت الفتاة انني مجنون ، وانهما ان صاحبت أو هربت عاكس ساقتلها كما توعدت أن أفعل . ولهذا سلكت معي سبيل التوسل والاستعطاف . واغريب انني كنت ازداد وحشية في تعذيبها كلما توسلت . وحين تستسلم كنت أحس بأنها انتصرت علي . وأخيرا حين استسلمت لكل ماقد أفعله بها حتى القتل ، شعرت انها سحقتني وانني في آخر الاسبوع انهرت . وعلا ضحك الصوت الساخر الهازئ في أعماقي . وشعرت من الاستمرار في مقاومته . وانهارت قواي واستسلمت للبكاء كالأطفال . تحولت من عملاق الى قزم صغير .

وحينذاك انسلت الراقصة المسكينة من شقتي وهي لاتكاد تصدق انها نجت . ظننت انني لا أحس بها ولا اعرف انها تهرب . ولكني كنت مدركا لكل حركة تقوم بها ، ولم اشعر باية رغبة في منعها . كنت مدركا انها قد تنجي بي ، ولكني لم أعد ابالي . وحتى الآن لم أعلم انها فعلت شيئا من هذا القبيل .

وأخيرا جفت دموعي . وشعرت باختناق في البيت ، ورغبة في بعض الهواء الطلق . ولبست ملابسي وخرجت ورحت أتمشى على الكورنيش .

كانت الساعة حوالي الرابعة والنصف صباحا والشوارع شبه مقفرة والريح قوية وأحيانا عليلة والأمواج هادرة صاخبة . كل شيء كان يبدو مسبحا مع اعصابي المتوترة ومريحا لها . الا البحر . فقد تصايحت من الأنوار الكهربية وتمنيت لو كانت كلها مطفأة والظلام سائد .

وسرت مسافة طويلة بدون استهداف

واصبح ، واخيرا انتهيت الى مكان معمر تماما وشبه مظلم ، ولبثت درجا لف بي يمينا ثم شمالا ثم انتهى بي الى مساحة رملية لم تكن الأمواج قد امتطتها بعد ، وجلست على الرمل الرطب ، وتسربت برودته الى جسمي واعصابي ، وبدأت اهدأ ، واحسست بشيء من الملل على وحشتي ورطوبة في عيني ، لا أعرف ان كان ذلك دمعا أو رذاذ بحر .. ولكني احسست بالراحة تغمرني وبالسلام يشملني ، وتوقفت عن التفكير وعن الاحساس الواعي الارادي وغاب عني وعيي الزمان والمكان وتلاشيت بدون قصد في نوع من الوحد الصوفي والوحدة الكونية مع الكون بكل ابعاده الزمنية والمكانية

لا أدري كم مضى من الوقت وانا على هذه الحال ، ولكني فجأة سمعت تنفسا متحشرجا ثقيلا وأنينا عميقا ، والتفت حولي وياللهول ما رأيت .. يا الهي يا الهي .

واعرورقت عيناي بالدموع واختنق صوته ، فهتفت به :

ـ (جريس) ؟ هل ألم بها مكروه ياخالد ؟

قال باكيا :

ـ كانت تموت ، كانت تموت بامصطفى ، اتصدق ؟ الانسانة الوحيدة التي احبها وتحبني ، الاشراقة الوحيدة في حياتي البائسة .. الحقيقة الوحيدة التي ظلت في حياتي خالية من الشك ومن الدنس ، نعم يا مصطفى ، كانت (جريس) ممدده بحنايني محطمة العظام مهصورة الجسد والدم يتدفق من فمها وانفها مع كل زفرة وكل كلمة ،

وغرقت بحزنها ملتاعا ، واحببت فوقها اسألها عن ما الم بها ..

فابتسمت ابتسامة تفيض بالحزن والألم وتمتمت :

ـ يا حبيبي المسكين ، لقد ظلمت نفسك كثيرا ، والطريق امامك شاق ، شاق وطويل ، ولن أكون بجانبك أواسيك ، لن تضمني اليك بعد اليوم فقد امتدت بيني وبينك السبل ، لكن سأظل في انتظارك يا روحي لأستقبلك في احضاني حين تخلع عنك هذا الثوب (واشارت الى جسدي) وهذه الخودة (واشارت الى رأسي) .

ثم همست بصوت واهن :

ـ الا تضمني ضمة الوداع ؟ مازال بامكانك أن تفعل ذلك .

وضممتها برفق ، وسندت رأسها بذراعي ، وانا لا املك دموعي من الانهمار ، ولا أدري كيف فاضت روحها ، ورحت أناديها لعلها ترد علي جريس جريس .. جريس .

ولكنها كانت قد طرحت عنها «ثوبها» و « خودتها » ، وبينما كنت أناديها اغارت علينا موجة عاتية طرحتني ارضا وافقدتني وعيي لحظات وحين افقت لم اجد لجسدها أثرا ، ورحت اطارد الموجة كالمجنون حتى وجدتني محاطا بالأمواج كل منها تصفعني في عنف وتردني في غير رحمة .

واخيرا عدت ادراجي عاثر القوى ممتقع الملابس منتزعا حتى العظام .. ووصلت البيت منتفضا شديدا ووقعت على الفراش في اغماءة طويلة عميقة وفي اعماقي صوت مجنون يردد في نواح !!

ـ البحر أعطى، والبحر أخذ . البحر أعطى والبحر أخذ .

أول شيء فعلته حسين أفقت هو ان خشوت ملابسي وحاجاتي في الحقيبة وخرجت الى القاهرة . وصعدت حقيبتي في شنطتي وخرجت هنا لأبدأ الطريق الشاق الطويل الذي دكرته (جريس) في ترعها .

ثم مد يده الى جيبه وأخرج منها مفتاح شقته ثم أعطاه لي وهو يقول :

ـ لي عندك رجاء خاص . ساقول لهم انني كنت في الاسكندرية أزور صديقا وانني تركت المفتاح قبل سفري معك .. خذ هذا المفتاح واذهب الى شقتي وخذ منه رسائل (جريس) احتفظ بها عندك حتى أخرج من السجن . أنت تعلم انهم سيفتشون بيتي . ولا أريدهم أن يعثروا على هذه الرسائل .

قلت :

ـ لم لا تذهب معي وغدا تسلم نفسك .

قال :

ـ لا .. لابد أن أواجه قدري منذ الآن . لقد هربت منه كثيرا ..

قلت :

ـ ليحمك الله ..

وتركته وذهبت الى شقته ..

***

في الحديقة كنت مختارا في قصته مع (جريس) . وقد راودني الشك بأنها لم توجد الا في خياله وضميره . ولكني حين دخلت شقته وقفت على رسائلها وخرجت تلك الرسائل بالفعل . مكتوبة بخط (جريس ماكنسكي) التي تقيم في (أوريغون) بأمريكا . أكثر من هذا حين فتحت حقيبة ملابسه وجدت بدلته وقميصه وملابسه الداخلية مازالت مبتلة بماء البحر . بل وجدت على معطفه أثرا حقيقا للدم .. وقد أخذت هذه الملابس الى بيتي حيث غسلتها وحتى وازالت منها أثر الدم والبحر .

وبعد حوالي أسبوعين حمل البريد من (أوريغون) بأمريكا طردا بريديا فيه كل الرسائل التي كان (خالد) قد بعثها الى (جريس) وفيه أيضا رسالة قصيرة جريئة من والدتها تقول فيها ان ابنتها (جريس) توفيت قبل أسبوعين في مستهل الثلاثاء ـ بعد الغروب ـ في حادث اصطدام بسيارتها . وأنها تأسف أن تخبر (خالد) بذلك . كما أنها تعيد اليه رسائله لأنها تذكرها بابنتها وتسبب لها آلاما مبرحة .

وارتدت حيرتي . هل كانت رواية خالد عن علاقته الغريبة بـ (جريس) صادقة كلها ؟ انها لغز لا افهمه . ولكنها حقيقة تؤيدها البراهين الملموسة . يا الهي . كم في دنياك من الحقائق الألغاز .